

ظاهرة الاغتراب في شعر سعدي يوسف

ريحانة ملازاده*

أستاذة مساعدة في قسم اللغة العربية و آدابها بجامعة الزهراء (س)

تاريخ قبول: ١٣٩٤/٠٢/١٩

تاريخ استلام: ١٣٩٣/٠٢/٠٨

الملخص

أدت ظروف الحياة العربية ومشاكلها إلى زيادة احتكاك الأديب بمشاكل الحياة التي يعيشها إدراكه، وبما أن الفساد قد تسرب في الأبنية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية للمجتمع العراقي فقد وجدت نفسية الفرد والشعراء خاصة إحساساً عميقاً بالضياع وبالتالي الاغتراب. وفي مقدمة هؤلاء، الشاعر العراقي المعاصر سعدي يوسف الذي عاش طويلاً في خارج بلاده. وبما أنه عاش حياة مليئة بالحركة والتنقل والمعاناة صار شعره صدئاً لأزمات الإنسان المعاصر بين حركات التحرر وجمود الاستعمار. وصدى اغترابه سيتضح من خلال دراستنا لشعره في الصفحات التالية. فيهدف هذا البحث إلى تعريف الاغتراب منذ ظهوره إلى يومنا هذا وبالتالي يحاول أن يكشف هذه الظاهرة في شعر هذا الشاعر الخلاق عن طريق استعراض نماذج من شعره ودراسة بعض ظواهر فنية وجمالية فيها معتمداً على المنهج الوصفي التحليلي.

الكلمات الرئيسية: الشعر العربي المعاصر، العراق، الاغتراب، سعدي يوسف.

المقدمة

قد انتهى النظام الملكي في العراق بعد إعلان قيام الجمهورية العراقية في ١٤ تموز ١٩٥٨م. لكن الانكسارات والخيبات التي عاناها الفرد العراقي ما انتهت بل تعمقت هذه الانكسارات خاصة بعد هزيمة حزيران ١٩٦٧م، ورغم ما فجرته الأخيرة من يقظة على عمق الفساد في الأبنية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية في المجتمع العربي، قد ولدت في نفسية الفرد، والشعراء خاصة إحساساً عميقاً بالضياع، وأصبحت عاملاً لهجرة العربي ووطنه (القوزي: ١٩٩٩م، صص ٢١٦-٢٠٤). و يذهب الدكتور بركات إلى أن النتائج السلوكية التي يسفر عنها الاغتراب تتراوح بين: الانسحاب أو العزلة، الخضوع والاستسلام، الثورة أو التمرد في سبيل تغيير الواقع (دلشاد وآخرون، ١٣٨٧ش: ٦٨).

وما يهمنا هنا أنّ عدداً غير قليل من أبناء الشعب العراقي قد آثروا سبيل الهجرة منهم الشاعر المبدع سعدي يوسف الذي اختار الهجرة علي البقاء ليردد آلام الإنسان عبر أشعاره أينما كان. من هذا المنطلق قمنا بدراسة «الاغتراب في شعر سعدي يوسف» لنلقي الضوء على مدى تأثيره بالنسبة لهذه الظاهرة ونبين ملاحظها في شعره. والذي يجب أن أشير إليه هو أنّ أعماله الشعرية طبعت أخيراً في سبعة مجلدات في بيروت لكن مع الأسف ليس موجوداً في إيران سوى الجزئين الذين قد تم طبعهما سنة ١٩٩٨م. لهذا قد استفدنا من موقعه أيضاً، للعثور على كل أعماله الشعرية الكاملة والجديدة. هذه الدراسة تحاول أن تجيب عن الأسئلة التالية ضمن عملية النقد والتحليل التي اعتمدنا عليها: ما هو مفهوم الاغتراب في الشعر العربي؟ وكيف تجلّت ملامح الاغتراب في شعر سعدي يوسف وما هي أنواعه؟

الدراسات السابقة

رغم تنوع تجربة سعدي يوسف الأدبية وغزارة انتاجاته الشعرية لم يحظ هذا الشاعر بدراسات نقدية سوى في كتاب تحت عنوان شعر سعدي يوسف كتبته الامتتان الصمادي واهتمت فيه بدراسة تحليلية قيمة دون أن تتناول ظاهرة الاغتراب. وفيما يتعلق بظاهرة الاغتراب في الشعر العربي المعاصر قدّمت دراسات من أهمها كتاب الاغتراب في الشعر العراقي، كتبه محمد راضي جعفر واختصه بأتماط الاغتراب التي عاشها الشعراء الرواد. وهناك مقال بعنوان «الغربة في الشعر العربي» (دلشاد وآخرون، ١٣٨٧ش). درس فيها الاغتراب السياسي والمكاني والزمني ومقال آخر بعنوان «شعر المنفى والمغترب لدى محمود سامي البارودي» (گنجي وصادقي، ١٣٩٠م) و أيضاً مقال تحت عنوان «موتيف الاغتراب في شعر يحيى السماوي» (بلاوي، رسول و آخرون، ١٣٩١م) و لكن لم يختص مقال بدراسة ظاهرة الاغتراب في شعر سعدي يوسف وهو من أعلام الشعراء العراقيين المعاصرين.

نظرة عابرة إلى حياة سعدي يوسف

ولد سعدي يوسف عام ١٩٣٤م في قرية «البيقع» إحدى ضواحي البصرة بالعراق. تعلّم في المسجد نصوص القرآن والحديث، وغيرها من المصادر التراثية الأخرى. توفّي والده وهو صغير وتكفله أخوه الأكبر بالرعاية. عاش طفولته في القرية ودرس الثانوية في البصرة وتخرّج في دار المعلمين ببغداد عام

١٩٥٨م. تقلّب سعدى في وظائف عدّة فعمل مدرّساً ومستشاراً إعلامياً وثقافياً ورئيس تحرير لعدد من المجالات كما حصل على مجموعة من الجوائز (سعود، ١٩٩٥م: ٤٦٠/٢).

شهد حروباً أهلية وعرف واقع الحظر والسجن والمنفى. ترك العراق في السبعينيات ثم تنقل في بلدان شتى عربية وغير عربية وحالياً يعيش في لندن. يمتاز سعدى بغزارة الإنتاج فوصل إنتاجه إلى أكثر من ألفي صفحة شعرية مقسّمة إلى ثلاثة وأربعين مجموعة. إضافة إلى القصائد فقد كتب مسرحيات شعرية ومجموعة قصصية ورواية ونصوص متفرقة ومذكرات. كما ترجم إلى العربية العديد من الأعمال الشعرية لشعراء عالميين من التركي والإسباني واليوناني والإيطالي والفرنسي والياباني (الصمادي، ٢٠٠١م: ١٨).

ويبدو أنّ أسباب تنوع تجربته الأدبية تعود إلى تجربته السياسية وتنقلاته المستمرة فقد أسهم ذلك في تشكيل ثقافته ورؤيته الشعرية؛ وشعره صدى لأزمات الإنسان المعاصر بين حركات التحرر وجمود الاستعمار. وصدى اغترابه سيتضح من خلال دراسة نماذج من شعره في الصفحات التالية.

تعريف الاغتراب

الف) الدلالة اللغوية

ورد لفظ (الاغتراب) في المعاجم العربية بمعنى النزوح عن الوطن، والذهاب والتنحّي عن الناس، وتوقان النفس، ويقولون اغترب فلان إذا تزوّج إلى غير أقربائه (ابن منظور، ١٩٨٨م: ٣١/١٠). هذه الكلمة في الحقيقة فرنسية تعادل (Nostalgia) و مأخوذة من (nostos) بمعنى الرجوع إلى البيت و (algia) بمعنى الألم أو الحنين إلى الماضي. (نفيسي، ١٣٧٥هـ.ش: ٢٤٨/٢).

ب) الدلالة الاصطلاحية

ومن الصعب تحديد معنى الاغتراب في الاصطلاح تحديداً دقيقاً، نظراً لاختلاف استعماله في البحوث الاجتماعية والدينية والدراسات الفلسفية ومجالات النشاطات الثقافية والأدبية وغيرها ولكن مظاهر الغربة عموماً واحدة. منها العزلة والشكوى والتطلع إلى مثال غير موجود، والبحث عن يوتوبيا خاصة. أمّا تسمية الغربة بالاجتماعية أو بالسياسية أو بالعاطفة فذلك راجع إلى دواعي الغربة نفسها التي أمدها بعناصر النمو (راضى جعفر، ١٩٩٩م: ٦).

فكرة الاغتراب في العرب

الاغتراب ظاهرة قديمة قدم الإنسان في هذا الوجود. والإنسان في صراعه مع ما حوله إما يعصى ويتمرد أو يستسلم وينعزل وينكفى على الذات وهذا يعنى لجوءه إلى الاغتراب. وفي المجتمع الجاهلي لا نستطيع أن نلمس هذه الظاهرة تلمساً واضحاً لأن العلاقات القبلية السائدة تفرض سياقاً اجتماعياً يحافظ على الروح الجماعية (زامل، ٢٠٠٣م: ١٣).

والمهم ابتداءً أنّ الشعر الجاهلي قد عرف «الخلع» كالحال عند شعراء الصعاليك وعرف «الطرد» على حد ما نعرف من امرئ القيس، وعرف النفي في الداخل وفي الخارج كما عرف الخروج وراء التكسب على نحو ما هو معروف من النابغة والأعشى (بدوي، ١٩٨٦م: ٦٤).
وحيث جاء الإسلام اندلعت ظاهرة الغربة في أشكال جديدة لأنه دفع بالعربي للتحوّل داخل الجزيرة ثم للخروج منها إلى العالم.

وفي العصر العباسي اشتدت ظاهرة الاغتراب لأن بعض الشعراء ما استطاعوا أن تكيفوا مع الواقع الاجتماعي فقد كثر الفساد وعمّ الناس البؤس بسبب ضعف الخلافة وتجزؤ الدولة إلى دويلات بحيث أصبح العربي يشعر بالغربة والانفصال عن ماضيه المجيد حينما كانت له السيادة ويكي على ما فقدته (زامل، ٢٠٠٣م: ٢٧). وفي القرن الرابع الهجري، أول كتاب حمل هذا الاسم كان كتاب «أدب الغرباء» لأبي الفرج الإصبهاني (بدوي، ١٩٨٦م: ٦٩).

فإذا جئنا إلى العصر الحديث وجدنا دراسات الغربيين المتعدّدة لظاهرة الاغتراب، يرى فيورباخ أن الاغتراب أساساً هو اغتراب ديني وأنّه أساس كلّ اغتراب فلسفي أو اجتماعي والفيلسوف الألماني هيجل يرى الاغتراب في صميم بنية الحياة الكلية. ويراه ماركس في حالات اغتراب الانسان عن عمله وعن زملائه. ويراه كولن ويلسون في كتابها المشهور (الغريب) أو (اللامتّمي) مرض القرن العشرين (العشماوي، ١٩٨٦م: ٥١).

تجليات أشكال الاغتراب في شعر سعدي يوسف

إنّ معنى الاغتراب عن النفس يتميز عن باقي المعاني بكونه ينطوي على شعور الفرد بانفصاله عن ذاته (المغنية، ٢٠٠٤م: ١٨). ويجسّ سعدي يوسف هذا الاغتراب الذاتي في أعماق وجوده إذ يقول:

لو كان لي برج لعشت به وحيداً/ لو كان لي قصر لأسكنت الكلاب به لتحرسني
وحيداً/ لو كان لي امرأتان، لاستضيف واحدةً، وعشت لها وحيداً/ لو مرّة كانت
خطأى علي المياة لسرت حتى آخر الدنيا وحيداً

(يوسف، ١٩٨٨م: ٧٨/١)

وفي مكان آخر يدّعي الشاعر بأنه يسير وحده حتى وإن كانت خطاه مع الجميع: أسير مع
الجميع وخطوتي وحدي (المصدر نفسه: ٣٦٩/١).

ويمكننا أن نتلمس مجال هذا المناخ من خلال نماذج من صوره الشعرية الأخرى نكتفي
بالإشارة إلى مطالع القصائد لمنع إطالة الكلام وهي: "تجرى وحيداً مثقلاً بالطحلب المزرق، منسياً
وثيداً"، "كل الدروب إليك تؤمى غير أنى لا أراها"، "أخطأت الطريق؟ فلم أجد بيتي"، و...
(المصدر نفسه: ٣٨٢).

وبما أنّ سعدى يوسف قد بقى لصيق الصلة بالوطن والإنسان فتجلى الحنين في كثير من
أعماله الشعرية واضح. وما يلفت النظر أنّ «شعر الحنين كان وليد حال صعبة من الاغتراب و
آلامه، وحصيلة دوافع نفسية وشعورية متعددة ألت بالمغترب. وللحنين معنى أشمل و أعمق فيشمل
الحنين إلى الوطن وإلى الطفولة وإلى المجهول وإلى المحبوب وإلى روح الحب في الكون» (الدقاق
وآخرون، لاتا، ١٦٠) و هنا نشير إلى مشاعر سعدى يوسف الاغترابية إشارات سريعة.

الف) الحنين إلى الوطن

إنّ سعدى يوسف عنون بعض قصائده بالوطن نحو: وطني (٤٥٩/١)، موطني (٤٩٤/١)، الوطن
الصغير (٤٦٩/١)، وطن (١٠٣/٢). هذا بالإضافة إلى مسميات أخرى توحى بهذا الحنين مثل:
بغداد (٣١٢/٣) إلى شوقى بغداد (٥١٦/١)، بغداد الجديدة (١٢٧/١)، شهداء عراقيون (٢٨٣/٢)،
شط العرب (٣٢٦/١)، من أجل أن تعيش جمهورية العراق (٦١٥/١)، موسيقى عن بغداد
القديمة (٥٥٩/١)، العراق آتٍ (١٤٩/٧) سلام على هضبات العراق (٩/٥) كما عنون مجموعة شعرية
تحت عنوان «بعيداً عن السماء الأولى» أي العراق. فتعدّ نزعة الحنين إلى الوطن عنصراً كبيراً في
شعر سعدى ويضغط هذا الحنين على نفسه إحساساً حزيناً نحسه من أشعاره. وكانت غربة
سعدى الأولى في وطن عربي، المكان الذي يشابه بوطنه بيئته وحياته ولغةً وكان يلفته إلى حالة
التذكر الرمادية، قال قصيدة «موطني» في الكويت عام ١٩٥٨م:

موطني... لو نسمة من موطني/ لو شرع نحوه يحملني/ لو تخفيت كعصفور فما يعرفني/
حارس يغلق عن عيني سمائي/ لو صديق!/ لم أقل عزّ الصديق/ إن كل الشرفاء
أصدقائي/ إنما... آه لأقمار الطفولة!

(يوسف، ١٩٨٨م: ١/٤٩٥)

إنّ الشاعر يصور الوطن ويتمنى في مهجره لو نسمة تحمله إلى الوطن ولو سفينة تحمله إليه، ولو يستطيع التخفي كعصفور بحيث يخفي أمره على حرس الحدود الذين يحرسون بالبنادق سماء الوطن، ولو صديق يساعده على العبور... وهو يقف هنا وقفة فيذكر أنه لا يشك في الصداقة ولكن من يسميهم «الشرفاء» ، هم أصدقاؤه الحقيقيون، ولكنهم الآن-ربما مثله- لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً فيتأوه لأيام الصباوة المنقضية. وأيضاً وسيلة الشاعر لغته البسيطة الصافية وهو يتعامل مع إيقاع الصور-النسمة، الشراع، العصفور ، الصديق...، أكثر ممّا يتعامل مع إيقاع تفعيل «فاعلاتن» التي تنتظم القصيدة والتي وُقِّ في التعامل معها (بدوى، ١٩٨٨م: ٣٤٤) و حرف لو تفيد الامتناع كررت أربع مرّات، ولكنه شعرياً يعلّق الامتناع الثاني أو الجواب، لأنّه لا أمل في الاستجابة بأن تحمله إلى موطنه نسمة أو شراع أو عصفور فتكون السعادة باللقاء (المصدر نفسه: ٣٤٠) و تختم القصيدة بأغنية تعبّر عن حزن عميق:

أريد أشرد/ من البصر/ ولا عود/ وأنا في خطوة المحكوم بالموت أسير/ بي ظلامي... في
ظلام لا يسير... / وأعني وأعني وأعني... الخ/ أغنية

(يوسف، ١٩٨٨م: ١/٤٩٥)

هذا الختام الحزين الذي ينبع عن غربة ذاتية يجعله يمشى في خطوة «المحكوم بالموت» في ظلام جامد لا يسير، ومع أنّه سيغنى فهذه الأغنية ستكون أملاً سيزدهر في طريق طويل.
وفي قصيدة "احتراق" يخاطب وطنه قائلاً:

وطني، أرفقني حبك، أبكاني طويلاً / أنت تدرى نحن لا نعرف للحب بدىلاً / غير
أَنْ القلق المرّ عليك / والليالي السود والأمطار والخوف النبيل

(يوسف، ٢٠١٤م: ١/٤٧٨)

لا ينسى سعدي حب وطنه يقلق له وهذا نتج عن الغربة السياسية التي تحولت إلى ألم معنوي يلاحق العربي أينما يهجر ويرحل، فيختم قصيدته بإدانة الصمت أمام مأساة الوطن: ضائع من

صمت اليوم ولم يوقظ يديك (المصدر نفسه: ٤٣٩/١)؛ و يتذكر الفاصل البعيد بينه وبين وطنه بأشكال مختلفة:

هنا بينى وبين النخل آلاف الفراسخ، بيننا الصحراء والبحر/ وبين البحر والصحراء
آلاف الفراسخ: بيننا القبر

(المصدر نفسه: ٣٦٧ / ١)

وفي أى مكان وجد نجد هذا النداء صارخاً حاراً دمويًا:

يا بلادي التي لست فيها/ يا بلاد البعيدة/ حيث تبكي السماء/ حيث تبكي
النساء/ حيث لا يقرأ الناس إلا جريدة/ يا بلادي التي لست فيها/ يا بلادي
الوحيدة/ أيها الرمل والنخل والجدول/ أيها الجرح والسنبل/ يا عذاب الليالي
المديدة/ يا بلادي التي لست فيها/ يا بلاد الطريدة/ ليس لى منك إلا شرع
المسافر/ راية مزقتها الخناجر/ والنجوم الشريفة

(المصدر نفسه: ٣٤٨ / ١)

وقد نوّع سعدى يوسف في استخدام ظاهرة التكرار بأشكال متنوعة ويستعين من هذا التكرار في بيان أحاسيسه الثقيلة بالحزن والغربة. وهذا الأسلوب تكنيك فني يزيد في قصائده جمالاً. وقد تبني الشاعر رأى نازك الملائكة حول ظاهرة التكرار في قصائده الاغترابية إذ تقول: «الفائدة الأولية في التكرار أنّ اللفظ المكرر ينبغي أن يكون وثيق الارتباط بالمعنى العام وإلا كان لفظية متكلفة لا سبيل إلى قبولها» (الملائكة، ٢٠١٤م: ٢٦٤) و نلاحظ أنّه يكرّر أسلوب النداء مستخدماً «يا» أداة النداء للبعيد لأنّ المنادى بعيد المرتبة حقيقة، وتكرار مقطع "يا بلادي التي لست فيها" ثلاث مرات يجسد التوجع والحزن والشعور بالغربة وهذه القطعة حافلة بكل الألفاظ التي تدل على الاغتراب وما يتصل بهما من آلام المعاناة مثل: البعيدة، تبكي، الوحيدة، الجرح، عذاب، الطريدة، المسافر، مزق، الخناجر، الشريفة، وتكرار "يا بلادي" يؤكد الشاعر على أهمية وطنه وهذه النداءات المتكررة تعداد لقيمة واحدة جسدها الشاعر في لفظة "بلادي" فهي البعيدة، الوحيدة، الطريدة. وفي المقطع الثاني نجد الشاعر يلجأ إلى تكرار أداة النداء مع تغيير نوع الأداة "أى" وتغيير المنادى وهذا تكرار ينبض بإحساس الشاعر وعواطفه عن وطنه. ويث شكواه المريرة فى قصيدة "المدينة" كأنّه ما ابتلي نفسه في حياته أقسى من تجربة الغربة:

في البلاد التي كرهت/ والبلاد التي هويت/ والبلاد التي لا أراها

(يوسف، ١٩٨٨م: ٥٢/٢)

وقد تجتمع جملة من الدلالات في النصّ الواحد نتيجة تكرار لفظة واحدة فتحمل البلاد الأولى دلالة التفجع والأسى على ماضيه والثانية تحمل دلالة التعظيم، والثالثة تتجلى فيها دلالة التنويه بالمستقبل (الصمادي، ٢٠٠١م: ٢٠٨) و يتكئ على أسلوب التكرار في البحث عن الوطن في مواقف متعددة منها:

أيا وطني المحاصر، أيها الوجه الثلاثي/ ويا وطن المرابا، أيها الجرح المفتوح، أيها
الجذر الثلاثي/ جريح أنت، تنزفنا دمًا ودمًا، ولكننا/ نريد الجرح، بدءًا منه
بالصنفر/ أيا وطني المحاصر...

(يوسف، ١٩٨٨م: ١/٢١٠-٢٠٩)

ب) الحنين إلى الطفولة

إنّ أزهى صور الحنين ما انطوى على عالم الطفولة فذاك عالم مرح لم تسود صفحته الآلام، ولم تذهب برونقه الأحزان، إنه عالم محبب إلى الشاعر الغريب لأنه يمدّه بصورة مشرقة مضيئة يعيش عليها في مواجهة الصورة العابسة التي يعيشها في مغتربه (الدقاق و آخرون، لاتا: ١٧٦). وللماضي أيضا نكهة خاصة عند سعدي لاسيما حين أثقلت أحزان الحاضر كاهله وأخذ الاغتراب بخناقته فنراه يسترجع الأيام الماضية التي عجز الزمن أن يحوها من ذاكرته لأنّها اقتزنت عنده بالبراء والصفاء والطهر:

أمس، انتهى بشهادة الميلاد، زاوية / وقلب، وهو يلهث، ما تجيء به الخطوط:
العمر/ والسنوات/ والوجه الصبي/ وثم قرينه.../ أحس الأرض تحت خطاه ثابتة/ وأوّ
الماء يجري/ إن ذاك الجسر لم يزل الصغير/ ويغتنه.../ مسنته أغنية الطفولة

(يوسف، ١٩٨٨م: ٢/٧٢)

فالقريبة تلمح ملامح طفولة سعدي والذكريات العذبة هي نبرة صادقة وسداجة رائعة من عالم الطفولة البهيج:

كانت ليالينا تضيء القمر/ وتطلع الأزهار قبل الشجر/ كنتا كطيرين إذا رفرقا/
هلت سماء وتحادي سحر

وقريته ليست إلّا مدينته الحلمية التي أمضى فيها أيام طفولته فهناك تطمئن روحه القلقة المشبعة بالاغتراب كأنّها كعبته المقدّسة:

وكعبة أسرى إيها الصبا/ ونام فيها الطير لما عبر/ يا قريتي... يا قرية من شذى /
يا لؤلؤاً غاصت إليه الدرر

(يوسف، ١٩٨٨م: ٥٦٣/١)

والحنين إلى الطفولة حنين إلى طقس مفقود لأنّ الهروب الرومانتيكى من الواقع والعودة إلى الماضي أو التوجه إلى المستقبل إلى عالم الحلم والمثل الأعلى هو بمثابة تعويض للإنسان بواسطة الوعى عن ذلك الواقع الحقيقى (راضى جعفر، ١٩٩٩م: ٤٩).
فحينما يحس سعدي عبء الحياة ينكص إلى براءة الطفولة ونعيمها:

شجرات الطفولة، يا شجرات الطفولة، يا شجرات الطفولة/ لنكن واضحين/ لنقل مرة
إن أفسى الحنين/ ندبة فى الجبين / لنقل أننا ما عرفنا الطفولة / أنت يا شجرات
الطفولة / كنت ممتدة... / وأنا كنت أبكى.

(يوسف، ١٩٨٨م: ٢٩/٢)

والملاحظ أن المشاعر القائمة سرعان ما تغمر نفس الشاعر حين ينقطع عنه تيار الذكريات الممتع ويتجههم أمام عينيه الواقع الكالح وهكذا كانت الحلاوة تقترن بالمرارة ويلجأ إلى تكرار الشيء المستحيل العودة وهو ما استطاع أن يعرفها فامتأ عيناه بالدموع وبكى عليها.

ج) استلهام التراث

للتاريخ والبطولات سحر خاص عند الشاعر إذ يحقق من خلال التغني به كثيراً من طموحه الذي يعجز عن بلوغه فى مجتمعه والشاعر المغترب يوازن بذلك بين ماضى مكنتز بالماثر أى ماضى لا مغترب، وبين حاضر حافل بالمأسى أى حاضر مغترب (راضى جعفر، ١٩٩٩م: ٥٦).

واتخذ سعدي من الألقاب والأسماء التراثية من التاريخ العربى القديم والمعاصر وكذلك من التاريخ الأوربى رموزاً ليثير بعض الطاقات الإيحائية والوجدانية لدى المتلقين وفى أغلب الحالات وظّفها فى مواقف وطنية وسياسية لمواجهة الملابس الحادة التي واجهها فى الغربة وربط الماضى بالحاضر من الناحية الثانية. لقد اقتصر سعدي فى بعض المواقف دون أن يبيّن ملامح الاسم وهو فى الحقيقة استحضرت الشخصيات التراثية نحو: امرئ القيس، اسبارتاكوس، المنتبى، أبى تمام، ومن الأنبياء: نوح والمسيح، ومن الأساطير: سندباد، نيرون، عشتر وغيرها استحضاراً مباشراً كى تذهب النفس فيها كل مذهب. وهذا المعجم الشعري يحفل بأسماء

كثيرة من رجال العلم والأدب والتاريخ والسياسة بالإضافة إلى ذكر أسماء الأماكن وبلدان كانت ساحات لمعارك تاريخية مشهورة نحو: بغداد، مصر، دمشق، بيروت، غرناطة، وسواها فضلاً عن المعالم التراثية كعمّارة الجامع الأموي وغيرها وهي معطيات ثقافية وحضارية دخلت قاموس سعدي من أوسع الأبواب:

يأتى المقدونيون/ تأتي قامة الإسكندر المثلى/ ويأتى الروس/ يأتى البارازانيون/ يأتي
الشاه/... والإسكندر المتزع من كأس أرسطو جاءنا يوماً.../... وهو لاكو أتى أيضاً/
... ثم مرّ الصبح والتاريخ/ مرّ الروم والديلم/ بينزطة أو مكة/ والحلاج والحجاج/ آه يا
بلاداً بين نهرين/ بلاداً بين سيفين/ بلاداً مرّة تافهة الحكّام
(يوسف، ١٩٨٨م: ٣٢٥/٢)

و ربّما أشار سعدي إلى هذه الرموز التاريخية ليعبّر عن قلقه الروحي وحاول أن يصوّر لنا الجوّ المرعب الذي أحرق به شعب العراق المظلوم.

أمّا الموروث الديني فقد تجلّت على شكل إشارات لغوية عابرة منها:

جبال كميكة جرداء/ وادٍ كميكة لا زرع فيه

(المصدر نفسه: ٨٢/٢)

للتاريخ: / نحن الفجر.../ لم ننزل على خيل مسومة

(المصدر نفسه: ٤٢٣)

الأرض كلها مسجدة/ فهل خلعت نعليك

(المصدر نفسه: ١٧٠)

لم يعرف أن يأكل لحم أخيه

(المصدر نفسه: ٢٢٨)

من يشتري جلد المسيح؟/ إنا سلخناه، فيا دنيا استريحي

(يوسف، ٢٠١٤م: ٤٤٤/١)

ربما الشاعر في هذه الاستدعاءات لا يعبّر عن أزمته الذاتية فحسب بل يعبّر عن أزمة وجودية وإنسانية عامّة فإنّ نماذج الصراعات التي خاضتها الرموز التراثية قد تتحدّد بصورة أو بأخرى في العصر الراهن، ويلوذ الشاعر من خلالها بذلك الماضي من اغتراب الحاضر ويكسب من خلالها القوة لمواجهة الشرّ ويجاوب تهدئة عناصر اغترابه و تخفيف وطأتها وتقليل آثارها السلبية ويجعلها نقطة انطلاق و كفاح له.

(د) اللوذ بالطبيعة

في كل شاعر مغترب، نفس رومانسى والطبيعة أحد ملاذات شعرائنا من اغترابهم. فرمما كان عالم الطبيعة البريئة مصدر راحة للشاعر الحزين بعيداً عن التقليد والتكلف وعندما يضيق المكان أو الزمان بالشاعر يقيم هذا فضاء في داخل ذاته أو يقيمه خارجها في غابة أو في كوخ أو في ريف ناء فليست الطبيعة إلا صورة لحياتنا النفسية (راضى جعفر، ١٩٩٩م: ٧٤). لقد توافر معجم الشاعر سعدى يوسف على العديد من ألفاظ الطبيعة. يقول في قصيدة "جزيرة الصقر":

جزيرة الصقر/ أرى أكواحك الشهباء فى المنفى/ منحورة الأعواد، يلهو فوقهن الريح
والماء/ والشمس - كالتنور - حمراء/ تستقطر الأعشاب، والبردى، والسعفا/ حتى إذا ما
اصفرت أو جفت/ غابت، وأبقت بعدها للناس ما شاؤوا/ الخبز والعتمة والداء
(يوسف، ١٩٨٨م: ٣٢١/١)

إنه كهف من الصور السود، وكلمات: المنفى، الأكواخ، منحورة الأعواد، الريح، التنور، حمراء، اصفرت، جفت، غابت، العتمة والداء، سلبية. ويعبر الشاعر عن احتناقه المستمر باستخدام الفعل المضارع: أرى، يلهو، تستقطر، إشارة إلى استمرار المأساة واستطالة الاغتراب. وفي قصيدة أخرى تقول:

أمثلما مرّت عليك الليلة الأولى/ تمرّ هذى الليلة الألف؟/ أ يبقى الحرف مشلولاً/
ينخره المنفى؟/ أ يبقى الغصن المقطوع مقطوعاً/ أوراقه تستمطر الجوعاً/ أوراقه
تصفّر.../ أوراقه تحت السموات الغريبات تعزّى غصناً كالجندر مجهولاً؟
(المصدر نفسه: ٣٢٤)

والليلة تدلّ على طول الحزن زمانها الماضى البطيء إلى الحد الذي كانت الليلة تساوى آلاف ليالي! ومفردات: الليلة، الغصن، أوراق، تستمطر، السموات، الجذر، أخذتها الشاعر من الطبيعة. كما أنّ الاستفهامات في هذا المقطع تدلّ على مدى حزنه من الظروف المأساوية التي تعيش فيها. وعندما يتذكر الشاعر بلده يعود إلى الحزن والأسى فلا عودة له فلم يهدأ باله ولم يشعر بالأمان فيقول:

الريح من بغداد/ طعم الريح فى شفتى/ طعم الريح طين يا أيها الغصن الحزين/ يا أيها
الملقى على الأرض - وإن قرئت غريبة/ لكأنّ طعم الريح طين/ وكأنّ كل الأرض - إلا
أرض بغداد - غريبة
(المصدر نفسه: ٣٦٦)

والريح ترمز إلى القوة المخصصة المولدة فإنّهما تلقح السحاب «فأرسلنا الرياح لواقح» (حجر/٢٢) (بلاوى، ١٣٩١ هـ.ش: ٨٩) و الطين أساس لخلقة البشر: «ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين» (المؤمنون: ١٢). لكن تناول الشاعر الريح وهى ليست إلا ريح بغداد المحاصرة والطين يرمز إلى بلاده الحزينة أو يمكن أن يقصد الشاعر منه نفس الغربة ومصائبها. والبحر كما يقول يونغ يرمز إلى اللاوعى الذي تتحشّد فيه آمال الإنسان وأحلامه ورغباته عارية عذراء لم تعرف قناعاً (عوض، ١٩٧٨ م: ١٠٣) و الواضح أنّ مفردتى البحر والنهر تتصل بالطبيعة وتوحي بحياة الصراع مع الشعور بالغربة. والشاعر حين يشعر بالغربة يخاطب البحر قائلاً:

يا أيّتها النحر العظيم/ احفر إلى وطني طريقك/ حتر من البلوى صديقك

(يوسف، ١٩٨٨ م: ٥٣٨)

والحالة سعدي يوسف النفسية التي تميزت بطغيان شعور العزلة من خلال الانحسار في المدن الغربية داخل نظام الشقق والفنادق وابتعاده عن حياة الغابات والبساطين واضحة وهو يتكئ على النباتات البيئية ويكتفي باستدعاء النخيل عبر خيط الذكريات:

دع لهذه النبتة الخضراء أن تهدأ/ في زاوية الغرفة.../ أن تحيا، كما شاءت

(المصادر نفسه: ٢٥٥/٣)

أيضاً يقول:

في ممرّ الحديقة/ يصمت الماء والورق البياس/ والظلال العميقة/ لم تغنّ العصافير/

والجدول الهامس/ لم يغنّ الحديقة

(المصادر نفسه: ٣٤٨/١)

الحديقة التي غرقت في الظلام ، وأوراق أشجارها مصفرة ولم يسمع حرير الماء ولاغناء العصافير، كل شئى عنده يستحيل إلى رماد، إلى عدم، فالحديقة والماء والورق والظلال وغناء العصافير كلها مظاهر الكون والحياة والشاعر يسقط ما في ذاته من أحاسيس حزينة ويكسو عناصر الطبيعة بالسواد والضباب. ومن الملاحظ أنّ العصافير تحمل دلالات الحرية والانطلاق البرىء وهنا لم تغنّ، والماء الذي يحسب مفتاح الأمل نحو المستقبل هنا ساكت وبذلك ينتقل الشاعر إلى مخاطبة الاغتراب الذي يعيش فيه والغربة القاسية التي يستشعرها بكل وجوده.

النتيجة

نستنتج مما تقدم

- أنّ فلسفة الألم الكامنة وراء الإحساس بالحزن والغربة هي مظهر من مظاهر إدراك المأساة وسعدي يوسف واحد من شعراء العربية المعاصرين الذين وعوا هذه المأساة.
- نرى التزام سعدي يوسف بوطنه جعله يعيش في غربة روحية وفكرية علاوة على الغربة الجسمية حيث تبلور هذا الاغتراب في الكلمات والعبارات والصور والمعاني والأساليب التي أوردها الشاعر في قصائده.
- بما أنّ الشاعر لا يستطيع أن يندمج داخل جو المجتمع الجديد يشعر بالغربة والوحشة ولهذا يتوق إلى الماضي وأيام الطفولة البريئة كما يلجأ إلى حضن الطبيعة ويزيل الستار عن قلقه الذي ينتابه في مهجره؛ فيذكر الوطن بأشكاله المختلفة والظلم الذي يعاني منه شعبه.
- يستخدم الشاعر الكلمات الدالة على الاضطراب والقلق والتضاد في معجمه الشعري، تظهر لنا حالة الصراع الداخلي للشاعر وغياب الإحساس بالأمن وضعف الشعور بالهوية، كما تبرز لنا من خلالها حالة التوتر التي تشعر بها نتيجة غربته وهذه الأحاسيس توضح لنا عمق اغتراب الشاعر المتمثل في الكلمات، والتكرار الذي يثير الرهب والشجن.
- قد استخدم سعدي على نطاق واسع وبأشكال أكثر تنوعاً أسلوب التكرار بأشكاله المتنوعة (حرف، اسم، فعل، جملة، عبارات، مقاطع) بحيث ساهم هذا التكرار في تفجير إحساس الشاعر الثقيل بالحزن والكآبة والوحدة والغربة.
- إنّ اللجوء إلى التراث يدل على أزمة في تحديد هويته وهو يستلهم التراث ليسدّ الخلل الذي يعترى مسيرة حياته في الغربة.
- إنّ الشعور بالاغتراب الذي عمّ قصائد سعدي يوسف يرجع إلى ظروف مرحلية كالظلم والاستبداد وفقدان الحرية، وهي ظروف إذا زالت، زالت معها ظاهرة الاغتراب.
- والذي نلخص إليه من هذا كله هو أنّ غربة سعدي يوسف في حياته وشعره، غربة جزئية عابرة لها ظروفها السياسية والاجتماعية التي بزوالها تزول غربة الشاعر وليست غربة وجودية شاملة ترفض الحياة في ذاتها ومن حيث هي الحياة.

المصادر

الكتب

القرآن الكريم

- ابن منظور، محمد بن مكرم (١٩٨٨م)، لسان العرب، الطبعة الأولى، بيروت، دار الإحياء التراث العربي.
- أشتر، عبدالكريم (٢٠٠٢م)، مسامرات نقدية، الطبعة الأولى، حلب، دار القلم العربي.
- بدوي، عبده (١٩٨٨م)، دراسات تطبيقية في الشعر العربي، الكويت، ذات السلاسل.
- _____ (١٩٨٦م)، قضايا حول الشعر، الكويت، ذات السلاسل.
- الدقاق وآخرون (لاتا)، تطور الشعر الحديث والمعاصر، مكتبة الثقافة الدينية.
- راضي جعفر، محمد (١٩٩٩م)، الاغتراب في الشعر العراقي، اتحاد الكتاب العرب.
- زامل، صالح (٢٠٠٣م)، تحول المثال_دراسة لظاهرة الاغتراب في شعر المتنبي، الطبعة الأولى، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- سعود، عبد العزيز وآخرون (١٩٩٥م)، معجم الباطنين للشعراء العرب المعاصرين، الطبعة الأولى، الكويت، دار القبس.
- الصمادي، امتنان عثمان (٢٠٠١م)، شعر سعدي يوسف_دراسة تحليلية، الطبعة الأولى، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- العشماوي، محمد زكي (١٩٨٦م)، دراسات في النقد الادبي المعاصر، بيروت، دار النهضة العربية.
- عوض، ريتا (١٩٧٨م)، اسطورة الموت والانبعاث في الشعر العربي الحديث، الطبعة الأولى، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- القسوزي، محمد علي (١٩٩٩م)، دراسات في تاريخ العرب المعاصر، الطبعة الأولى، بيروت، دار النهضة العربية.
- المعداوي، أحمد (١٩٩٣م)، أزمة الحداثة في الشعر العربي الحديث، الطبعة الأولى، المغرب، دار الآفاق الجديدة.
- المغنية، أحمد جواد (٢٠٠٤م)، الغربة في شعر محمود درويش، الطبعة الأولى، بيروت، دار الفارابي.
- الملائكة، نازك (٢٠١٤م)، قضايا الشعر المعاصر، بيروت، دار العلم للملايين.
- نفيسي، سعيد (١٣٧٥م)، فرهنگ فرانسه به فارسي، چاپ هفتم، انتشارات صفی عيشاه.
- يوسف، سعدي (١٩٨٨م)، الأعمال الشعرية، الطبعة الثالثة، بيروت، دار العودة.

المجلات

بلاوى، رسول؛ آباد، مرضيه؛ طالب زاده شوشترى، عباس؛ عرب، عباس (٢٠١٢)، «موتيف الاغتراب في شعر يحيى السماوى»، مجلة دراسات في العلوم الانسانية، السنة ١٩، العدد ٣، صص ٩٤-٧٧.

دلشاد، جعفر وايروانى زاده وصدقى واشكورى (١٣٨٧هـ)، «الغربة في الشعر العربى (شعر العراقى نموذجاً)»، مجلة العلوم الانسانية الدولية، السنة ١١، العدد ٤، صص ٧٦-٦٣.

المواقع الإلكترونية

يوسف، سعدى (٢٠١٤م)، الأعمال الشعرية الكاملة، الطبعة الأولى، منشورات الجمل، بيروت-بغداد.

<http://www.saadiyousif.com/home>

نمود اغتراب در شعر سعدی یوسف

ریحانه ملازاده*

استادیار گروه زبان و ادبیات عربی دانشگاه الزهرا (س)

چکیده

وضعیت حاکم بر جامعه عربی و مشکلات موجود در آن ذهن همه شاعران را درگیر مسائل روزمره کرده و تحت تأثیر خود قرار داده است. شیوع فساد در ساختار اجتماعی، سیاسی، اقتصادی، و فرهنگی جامعه عراق موجب شد افراد جامعه به ویژه شاعران به طور عمیق احساس یأس کنند و در نتیجه به انزوا و اغتراب روی آورند. از جمله پیشروان این افراد، شاعر معاصر عراقی، سعدی یوسف است که مدت‌های زیادی خارج از کشورش زندگی کرده است. وی در دوره غربت نقل مکان‌های متعددی داشته و سختی‌های بسیاری را متحمل شده است؛ از این رو شعرش نیز پژواکی از بحران‌های انسان معاصر است که تعارض و تقابل جنبش‌های آزادی‌بخش با حرکت‌های استثمارگرایانه غرب را به تصویر می‌کشد. در پژوهش حاضر میزان این نوستالژی ضمن تحلیل اشعار سعدی یوسف بررسی خواهد شد. این مقاله با هدف تعریف اصطلاح اغتراب از آغاز پیدایش تا عصر حاضر با تکیه بر شیوه تحلیلی - توصیفی به نگارش درآمده و سپس پدیده اغتراب را از طریق عرضه نمونه‌هایی از اشعار مبتکرانه شاعر مورد تحلیل قرار داده و نکات فنی و زیبایی‌شناسانه آن را بازگو کرده است.

کلیدواژه‌ها: شعر معاصر عربی؛ عراق؛ اغتراب؛ سعدی یوسف.